مصطفى أمين

«كان» . . . فعل ماض ! ! . .

كان ذلك فى أواخر شهر مايو سنة ١٩٦٧ . وكانت صحف القاهرة تنشر بالخطوط العريضة المانشيتات الضخمة عن حشد الجيوش المصرية فى سيناء ، وعن الاستعدادات الهائلة للحرب ، وعن الخطط التى وضعناها لكسب المعركة . . .

واستدعانى مأمور سجن ليمان طرة لمقابلته على عجل . وجاء « النوبتجى » الذى يحمل الإشارة يتعجلنى لأن الأمر هام وسريع . . . وأسرعت إلى مكتب المأمور ، فأجلسنى على مقعد ، وناولنى ورقة وهو يقول :

– هذه ورقة من رياسة الجمهورية . والمطلوب منك أن توقعها فوراً . .

وناولنى الورقة . وذهلت . إنها ورقة مكتوب عليها « أنا الموقع على هذا مصطفى أمين يوسف أقر وأعترف بأننى تنازلت عن شقتى رقم ٦٢ بالطابق السادس بعمارة وديع سعد ٨ شارع صلاح الدين بالزمالك ، بكل ما فيها من أثاث . وهذا إقرار منى بذلك . . . »

وسألت المأمور فى عجب : ما هذا ؟

قال المأمور : رياسة الجمهورية تطلب منك أن توقع هذا .

قلت : أنا أقيم فى هذه الشقة منذ عام ١٩٤٩ ، وأدفع إيجارها بانتظام ،

فكيف أتنازل عنها ؟

قال : هذه هى الأوامر .

قلت : ولكنى لن أوقع !

قال : أنصحك أن توقع . . . حتى لا تغضب رياسة الجمهورية .

قلت : وماذا تستطيع رياسة الجمهورية أن تفعل أكثر مما فعلت ؟! أنا محكوم علىّ بالأشغال الشاقة المؤبدة !

قال : إن أحد كبار ضباط الجيش تفرّج على شقتك ، وأعجب بها .

قلت : كيف يدخل شقتى وهى مغلقة ومفتاحها معى ؟

قال : ليس من حقك أن تسأل هذا السؤال .

قلت : كيف لا يكون من حقى وهذا بيتى ؟

قال : أنت الآن تعارض فى قرار جمهورى !

قلت : أعطنى الورقة . .

وأعطانى الورقة ، وكتبت عليها بخطّ يدى :

« أرفض أن أتنازل عن شقتى . وأنا فى دهشة أن أقرأ فى الصحف أن الجيش المصرى يحتشد للاستيلاء على إسرائيل ، وأجد أحد كبار ضباط الجيش المصرى يحتشد للاستيلاء على شقتى ! وبدلاً من أن يكون الآن فى غرفة العمليات فى سيناء يضع الخطط للاستيلاء على إسرائيل أجده فى شقتى فى الزمالك يضع الخطط للاستيلاء عليها . . . »

ووقعت على الورقة بإمضائى ، وسلمتها للمأمور !

وعدت إلى زنزانتى وأنا قليل الثقة بما سوف تحققه قيادة الجيش المصرى فى إسرائيل ، مادامت مشغولة فى الوقت نفسه بأمر أكثر أهمية ، وهو الاستيلاء على شقة مواطن ، مسجون فى السجن ، مقيد الحركة ، لا يستطيع أن يقاوم . . « الغزاة » الذين أخطأوا فى معرفة عنوان ميدان القتال !

وقلت لنفسى إنه من غير المعقول أن يحدث لى وحدى هذا الذى حدث . إن معى فى السجن ألوفاً من المسجونين السياسيين والمعتقلين السياسيين ، ولابد أن

كثيراً من بيوتهم قد اقتحمت ، باعتبارها « قلاع الأعداء » ، ولابد أن بعضهم اضطر للتوقيع تحت الضغط والوعيد والإرهاب . واستنتجت من هذا العبث الذى حدث معى ، أنه دليل على أن ما يقال عن الاستعداد للهجوم على إسرائيل هو كلام يقال للاستهلاك المحلى . وأن الغرض منه انتهاز هذه الفرصة للاستيلاء على شقق الناس وبيوتهم باسم المعركة ، والقبض على خصوم أصحاب مراكز القوى بحجة حماية أمن الدولة فى أثناء القتال . . ومضت الأيام تسير متثاقلة إلى آخر مايو . .

وامتلأت الصحف قبيل المعركة بأنباء وتصريحات تعلن النصر فى المعركة . . . وكنت جالساً مع عدد من زملائى المسجونين فى عنبر واحد بسجن ليمان طرة . وكنا نتحدث عن الحرب ، وسألنى المسجونون ما رأيى فى هذا الحشد العظيم ؟ قلت : إننى ضد هذا الحشد ، ولا أوافق عليه ، وأتوقع أن تكون نتيجته أن تنقضّ علينا إسرائيل وتهزمنا شرّ هزيمة !

ونزل كلامى كالصاعقة على المسجونين . وانتهى الحديث وعدت إلى زنزانتى . وبعد دقائق أقبل علىّ أحد الضباط مهرولاً يدعونى إلى مقابلة مأمور السجن على الفور .

وسألت الضابط عن سبب هذا الاستدعاء ، فقال إنه لا يعلم . وذهبت إلى مأمور السجن الذى بادرنى بقوله : هل قلت للمسجونين إنك غير موافق على الحشد ؟ قلت : نعم ! قال المأمور : هل قلت لهم إن الجيش سيهزم ؟ قلت : نعم . قال : ألم تقرأ الصحف ؟ قلت : أقرؤها . قال : ألم تقرأ فى الصحف أن الجيش المصرى سيهزم الجيش الإسرائيلى فى بضعة أيام ؟ قلت : قرأت ! قال : ألم تقرأ أن أم كلثوم ستغنى فى تل أبيب أول يوم خميس فى الشهر القادم ؟ قلت : قرأت ذلك . قال المأمور غاضباً : كيف تقول بعد كل هذا إن الجيش المصرى سيهزم ؟ ! قلت : لأننى أعرف قيادة الجيش المصرى ، وأعرف حقيقة الحالة . قال المأمور : أرجوك ألّا تكرر هذا الكلام حتى لا يصل إلى الجهات العليا . قلت : إننى أريد أن يصل كلامى هذا إلى الجهات العليا ، وسوف أكرره إلى أن يصل إلى الجهات العليا . وسوف أستمر أعارض قيام الحرب ، إلى أن تدخل بلادى الحرب ؛

وبعد خمس دقائق من دخولها سوف أعلن تأييدى للحرب ، لأننى سأعرف عندئذ أن إنذارى وتحذيرى لم يفعلا شيئاً ، وواجبنا فى وقت الحرب أن نقف جميعاً صفًّا واحدًا مع بلادنا مهما كان رأينا فى الحرب نفسها . . .

وأمر مأمور السجن بإعادتى إلى الزنزانة ، وأصدر أوامره بمنع اختلاطى بالمسجونين أو التحدث إليهم .

وكان مأمور السجن ينظر إلىّ كأننى مجنون ، وتصور أن سنوات السجن أثرت على قواى العقلية حتى إننى أصبحت أتوقع الهزيمة على حين أن الدنيا كلها تؤكد النصر !

وعشت بضعة أيام معزولاً عن المسجونين . . .

وفى يوم ٥ يونيو وجدت حركة غير عادية فى السجن . أغلقت فجأة جميع الزنازين . أعيد المسجونون من العمل . وبعد ساعات أقبل الصاغ محمد كمال الدين أركان حرب الليمان ، وفتح باب زنزانتى وحدها دون جميع الزنازين . وقال لى : المدير أمرنى أن أفتح باب زنزانتك ، وأخبرك أن الجيش المصرى اقتحم إسرائيل ، وفى طريقه إلى تل أبيب ، وأننا أسقطنا ٣٨ طائرة . . .

قلت فى هدوء : هذا غير صحيح !

قال فى انفعال : كيف لا يكون صحيحاً . هذا بلاغ رسمى !

قلت : ولو !

قال : وأذيع فى الإذاعة . .

قلت : ولو !

قال : كيف تعرف أن البلاغ الرسمى غير صحيح ، وأنت فى داخل زنزانتك فى السجن ؟

قلت : لأننى أعرف كيف تكتب البلاغات الرسمية !

وهزّ الصاغ محمد كمال الدين رأسه فى حزن وأسى لأن صحفيًّا كبيراً فقد عقله فى الزنزانة !

ومضت الأيام والزنزانة مغلقة ، وإذاعة السجن تنقل عن إذاعة القاهرة

وإذاعة صوت العرب أنباء الانتصارات التى حققناها !

وفى يوم ٨ يونيو فتحوا باب زنزانتى ، وجاء أحد الحراس يبلغنى أن المأمور يريد أن يرانى على الفور. ودخلت مكتبه ووجدته يلطم وجهه بكفيه ويقول :

– كيف عرفت ؟ . . كيف عرفت ؟

قلت : لست وحدى الذى كان يعرف هذه الحقيقة !

قال : لماذا لم يقولوها ؟

قلت : حتى لا يحدث لهم ما حدث لى !

قال المأمور : تصور ليس عندنا بندقية واحدة من القناة إلى القاهرة . ليس عندنا عسكرى واحد ! تصور أن الهزيمة شاملة كاملة ! هل هذا معقول ؟

قلت : هذا هو المعقول . إن واحداً زائداً واحداً يساويان اثنين . إن معلوماتى أننا كنا نعدّ جيشاً ليحافظ على النظام ، ولا نعد جيشاً ليحارب . الضباط الذين أرسلناهم فى بعثات إلى الكليات الحربية فى روسيا وأمريكا وإنجلترا ويوغوسلافيا نعينهم رؤساء لمجالس إدارات شركات الصابون والسردين وتعمير الصحارى . . . وعندما يجلس المحاربون فى المكاتب ستترك مهمة القتال للمدنيين !

وتركت المأمور وهو شبه محطم ، واتجهت إلى زنزانتى وأنا أجرّ قدمى . . ووجدت نفسى أرتمى على فراشى . ودخل جارى فى الزنزانة السجين أنور زعلوك ، ووجدنى أبكى ! وذهل . وقال لى : كيف تبكى من الهزيمة وقد كنت أنت أول من توقعها . . قلت : كنت أتمنى لو كنت مخطئاً ، وأن يكون الذين سجنونى على حق .

وأعترف أن الهزيمة كانت أكبر من كل تشاؤمى ! وكانت أفدح من كل توقعاتى . وعشنا فى السجن أياماً طويلة فى جنازة مستمرة ! كأننا نشيع نعشاً . وكان خصوم الدولة من المسجونين السياسيين أشبه بالثكالى ، يمضون أيامهم فى الندب والعويل !

وتمنيت أن نستفيد من هذا الدرس . فإننى أومن بشعار يقول « لابد من الاستفادة من الكوارث » . . ثم فوجئت بمن يحاولون أن يقلبوا الهزيمة النكراء إلى نصر مصنوع . . وسمعت الإذاعة تقول إننا خسرنا الأرض ولم نخسر النظام ! وعجبت . . .

إن فى رأيى أن خسارة شبر واحد من أرض الوطن أهم من ألف حكومة ! فما بالك وقد خسرنا ثلث مساحة مصر كلها ! ثم لاحظت أن محاولات تبذل لتغطية الهزيمة ولتصغير حجمها ، ولتبريرها . وكان من رأيى أنه لا أمل فى النصر إذا لم يعرف الشعب سبب هزيمته . . . وأنه لا يمكن أن نحقق النصر بنفس الرجال الذين حققوا الهزيمة . .

ولم يسكت الشعب . . بدأ الشعب يقاوم بالنكت . . وكانت النكت أعجب أسلحة المقاومة . . وقد كانت النكتة أحياناً أقوى من القنبلة !

وبدأ الشعب يطالب بالتغيير . .

وبذلت محاولات ضخمة لخنق مطلب الشعب ، ولتمييع التغيير . . ولكن الشعب استمر ينادى بضرورة التغيير . .

وكنت أشعر فى زنزانتى بعدم الجدية . وكان الشعب يحس معى بهذا الإحساس . كنا قرأنا قبيل الحرب عن اجتماعات طويلة يعقدها القواد . وكان آخرها اجتماعاً دام سبع ساعات برياسة المشير عبد الحكيم عامر نائب القائد الأعلى وحضور الفريق عبد المحسن مرتجى قائد الجيش والفريق صدقى محمود قائد الطيران والفريق سليمان عزت قائد الأسطول !

وقالت الصحف يومها إن الاجتماع الهام لم يعقد لبحث خطط الهجوم على إسرائيل وإنما عقد برياسة المشير عامر بصفته رئيس اتحاد كرة القدم ، والفريق مرتجى باعتباره رئيس النادى الأهلى ، والفريق صدقى محمود باعتباره رئيس نادى الطيران ، والفريق سليمان عزت باعتباره رئيس النادى الأوليمبى، وأن البحث كان بسبب نقل اللاعب لمعى من نادى المنصورة إلى النادى الأهلى !

ولم يحدث فى أى بلد فى العالم أن رأس قواد الجيوش جميعاً أندية كرة القدم ، وشغلوا أنفسهم بالخلافات بينها ، واجتمعوا ساعات طويلة لبحث أمر لاعب تاركين شئون أسلحتهم من أجل لاعب صغير اسمه لمعى ! !

وكان من الواجب أن نعرف كل أخطائنا لنعرف الطريق إلى النصر . . . ولكن الذى حدث أننا لم نكلف أنفسنا التحقيق فى أسباب الهزيمة ، ولم نهتم بأن

نعرف أسماء القواد الذين أخلوا بواجباتهم ، بل اتجه الاهتمام إلى تطهير الجيش من عدم الموالين ، وانشغلت البلاد بتحقيقات فى محاولة المشير عبد الحكيم عامر العودة إلى قيادة الجيش المصرى بالقوة ، بعد أن أبعد عنه . . .

وكانت التحقيقات والوشايات والبلاغات الكاذبة سبباً فى إبعاد عدد من أكفأ قواد الجيش الشبان عن مناصبهم . واستبقى فى الجيش القواد الذين لا خوف أن يقوموا بانقلاب عسكرى ضد الحكومة . . .

وأغلقنا عيوننا عن الأسباب الحقيقية للهزيمة ، فلم يقل أحد إن من أول أسباب الهزيمة أننا نسينا الله ، فنسينا الله ؛ وأن الإلحاد انتشر بين من يسمون أنفسهم بالمثقفين ، وكان بعض قادة الرأى من أنصاف المتعلمين يتظاهرون بالإلحاد ليصبحوا من التقدميين . . .ولم يقل أحد إن الإرهاب الذى انتشر فى كل مكان أشاع الخوف بين المواطنين ، وانعدمت الثقة بين الناس ، واختفى التراحم والخير . وسمعنا عن طالبة فى الجامعة تشى بأخيها وتقدم تقريراً ضد أخيها بأنه يهاجم الحكومة ، فتقبض الحكومة على الأخ ؛ وتقيم للأخت الواشية حفلة تكريم ! ولم تستطع جريدة واحدة أن تقول إن من أسباب الهزيمة هذه الألوف المؤلفة من المسجونين السياسيين والمعتقلين السياسيين ، وأنه لا يمكن أن ينصرنا الله وفى سجوننا هذا العدد الهائل من الأبرياء والمظلومين !

ولم نتعلم من دروس الهزيمة شيئاً !

وكان أكبر دليل على ذلك القرار الذى صدر بعزل جميع قضاة مصر ، وإعادتهم إلى مناصبهم بعد ٢٤ ساعة ، فيما عدا حوالى أربعمائة مستشار وقاض من أحسن قضاة مصر غضبت عليهم الحكومة لأنهم حكموا أحكاما لم تعجبها !

وتولى الرئيس أنور السادات الحكم . . . وأجريت انتخابات لرياسة الجمهورية .
وفوجئ الشعب بأنور السادات يشكر الذين قالوا « لا » كما يشكر الذين قالوا « نعم »

وكان الناس قد توقعوا أن يأمر بوضع الذين قالوا « لا » فى المعتقلات والسجون !

وكانت هذه أول مرة تحترم فيها كلمة « لا » منذ سنوات عديدة . وكانت

كلمة أنور السادات هذه رد اعتبار لكلمة « لا » . . كانت دقة الناقوس بمولد عصر جديد !

وبدأت معركة خلف الستار بين الحرية والدكتاتورية . بين الحاكم الشرعى ومراكز النفوذ . .

وجاءت ثورة ١٥ مايو . ووقف الشعب كله بجوار أنور السادات . . واستطاع أنور السادات وحده أن ينتصر على نائب رئيس الجمهورية الذى يدير الاتحاد الاشتراكى ، ووزير الحربية الذى يقود الجيش ، ووزير الداخلية الذى يسيطر على المباحث وفرق الأمن والشرطة ، ورئيس مجلس الأمة ووزير القصر الذى يدير أجهزة رياسة الجمهورية !

وأى حساب بين هذه القوى المجتمعة وبين رئيس الجمهورية وحده كان يؤكد أن النصر الحاسم سيكون لهذه القوى الجبارة . . .

ولكن الله كان مع أنور السادات ، وكان الشعب مع أنور السادات فاستطاع أن يقبض على هؤلاء الجبابرة جميعاً وكأنه يقبض على عدد من الفراخ !

وبدأ أنور السادات يضىء الأنوار . .

وأمر بإعادة القضاة والمستشارين المفصولين ، فأعاد لقضاء مصر كرامته . .

وأفرج عن المعتقلين السياسيين ، وأغلق معسكرات الاعتقال . . وكان بعض المعتقلين اعتقلوا لمدة خمس سنوات لأنهم مشوا فى جنازة النحاس باشا ! ! وكان ألوف المعتقلين معتقلين بغير تحقيق وبغير تهمة وبغير محاكمة !

وأوقف التعذيب . .

وأفرج عن المسجونين السياسيين ، وبعضهم أمضى ٢٠ سنة فى السجن !

ورفع الحراسة . . وكانت الحراسة قد فرضت لأسباب شخصية أو لأسباب وهمية . . وكانت أسرة بأكملها قد فرضت عليها الحراسة لأن إحدى بنات هذه الأسرة رفضت أن تتزوج من ابن أحد مراكز القوى !

وأعاد الصحفيين إلى صحفهم . . وأعاد الطلبة المفصولين إلى جامعاتهم . .

وبدأ يقوى مصر بالدول العربية التى ناصبناها العداء ، وكانت أغلب خلافاتنا صبيانية !

فقد اختلفنا مثلا مع السعودية ، واعتبر السذج أن السعودية سوف تخاف ، وتعود إلينا صاغرة !

ولكن الذى حدث أن الخلاف بيننا وبين السعودية قد تفاقم . وجاء أنور السادات ليضع حداً لتصرفات هذه الأجهزة التى كانت تحركها مراكز القوى . .

وقوى مركز مصر بالصفاء والصداقة والأخوة أكثر مما قوى بالشتائم والقنابل .

ووقفت الدول العربية صفاً واحداً

وعبرنا فى ٦ أكتوبر وانتصرنا . . .

* * *

وسمعت السيدة الاولى جيهان السادات أن قاعدتين جويتين فى أنشاص والمنصورة قامتا ببطولات ضخمة فى الطيران فى أثناء المعركة ، وأن قائدى القاعدتين قاما بعمليات فدائية مذهلة ، وضربا أرقاماً قياسية فى عمليات الهجوم .

وقررت السيدة الأولى أن تزور القاعدتين ، وبدأت بزيارة قاعدة أنشاص .

وحيَّت الطيارين الأبطال ، وأقاموا لها حفلة شاى بسيطة ، وجلست وإلى يمينها قائد قاعدة أنشاص . . وسألته : ما الذى جعلكم تحاربون بهذه البطولة ؟ ولماذا لم تحاربوا فى سنة ١٩٦٧ كما حاربتم فى أكتوبر ؟

قال القائد الشاب : كنا بالأمس نحارب ، وننظر خلفنا لنرى الذين يكتبون التقارير ضدنا . أما اليوم فحاربنا ونحن نشعر أننا أحرار .

قالت السيدة الأولى : وأنت لماذا حاربت بكل هذه الشراسة والفداء ؟

قال القائد الشاب : لأننى كنت مسجوناً فى السجن ظلماً . وأخرجنى أنور السادات من السجن ، وأعادنى إلى الجيش ، وسلمنى هذه القيادة . وأردت أن

أثبت أننى كنت مظلوماً . . .

وزارت السيدة جيهان السادات قاعدة المنصورة ، وأرادت أن تتجاذب أطراف الحديث مع قائد المنصورة فقالت له :

– هل تعرف قائد أنشاص ؟

قال قائد المنصورة :

– كيف لا أعرفه . . . لقد كان معى فى السجن !

لقد أثبتت حرب أكتوبر نظرية جديدة فى منطقة الشرق الأوسط : أن الأحرار ينتصرون والعبيد يستسلمون !

ومنذ أيام أقام الأمير سلطان وزير الحربية السعودية مأدبة عشاء فى فندق شيراتون . .

ورأيت ضابطاً كبيراً يقبل علىّ مبتسماً . وعرفت من صورته أنه الفريق أحمد بدوى قائد الجيش الثالث الذى ناقشه الرئيس أنور السادات فى اجتماع مجلس الشعب عن أعماله البطولية وظهر فى التليفزيون . . . وتحدثت عنه الدنيا .

وتقدم نحوى وهو يقول :

– ألا تعرفنى ؟ لقد كنا زملاء ؟

قلت للفريق بدوى : هل كنت سيادتك تعمل فى الصحافة ؟

قال : لا . . كنت فى السجن !

ألم أقل لكم إن « كان » هى فعل ماض !